إحياء النحو

لإبراهيم مصطفى

(توفي ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م)

الطبعة الثانية

الطبعة الأولى ١٩٣٧

الطبعة الثانية ١٤١٣ : ١٩٩٢ القاهرة

تقديم الكتاب

للأستاذ الدكتور طه حسين بك

هذا كتاب سيراه الناس جديداً ، وما أرى أنهم سيتلقونه بما تعودوا أن يتلقوا به الكتب من الدعة والهدوء . وما أحسبنى أخطئ إن قدرت أنهم سيدهشون له ، وأن كثيراً منهم سيضيقون به ، وقد يتجاوزون الضيق إلى الخصومة العنيفة والإنكار الشديد ، لأن الكتاب جديد كما قلت ، فى أصله وفى صورته ، وهو من أجل ذلك يخالف كثيراً جدا مما ألف الناس ، وقد يغير كثيراً جدا مما ألف الناس . فلا غرابة فى أن يلقوه بالدهش ، وفى أن يثور به الثائرون .

ولكنى مع ذلك لا أقدمه إلى الناس كما أقدم شيئاً جديداً بالقياس إلىَّ ، فإن عهدى به قديم ، وإلفى له متصل . ولست أجاوز القصد إن قلت إنى لقيته لقاء الصديق ، واستمعت له كما أستمع لحديث الصديق ، فى كثير من الحب والحنان

والوفاء . فهو يذكرنى أكثر أطوار حياتى العامية ، منذ أخذت أطلب العلم صبيا وشابا إلى الآن . ذلك أنه كتاب نشأ مع عقل صاحبه ، وتطور بتطوره ، واختلفت عليه الصروف ، كما اختلفت على صاحبه الصروف ، ثم خرج منها كما رأيته وكما سيراه القراء ، قويا صلباً متيناً ، لا يعرف الضعف ولا الفتور ، ولا يعرف الخور ولا لين القناة .

أنا قديم العهد به ، ألقاه الآن لقاء الصديق ، لأنى قديم العهد بصاحبه ، ما لقيته قط إلا امتلأت نفسى بهجة ورقة ، وحنانا ، لأنى أرى فيه خير ما مر بى من أطوار الحياة ، وشر ما مر بى من أطوار الحياة أيضا . وأراه الصديق الأمين والأخ الوفى ، فى أطوار الخير والشر جميعا ؛ وأرى معه هذا الكتاب يتحدث إلىّ به ، ويجادلنى فيه ، ويلح على فى الحديث والجدال . فلا يبلغ الحاحُه منى مللا ولا سأما ، وإنما يثير فىّ رغبة مجردة إلى المناقشة والحوار .

وما رأيك فى أنى أعرف إبراهيم منذ آخر الصبا وأول الشباب ، حين كنا نلتقى فى حلقات الدرس فى الأزهر الشريف

فنسمع لشيوخنا ، ثم نلتقى بعد الدرس فنعيد ما كانوا يقولون نكبر أقله فنستبقيه فى أنفسنا ، ونصغر أكثره فنعرض عنه إعراضا ، أو نتخذه موضوعا للعبث والمزاح .

وحين افترقنا فذهب هو إلى دار العلوم وبقيت أنا فى الأزهر ، ثم أبى الله إلا أن يجمعنا ، ولما يمض على فراقنا إلا أقل الوقت وأقصره ، فإذا نحن نلتقى فى غرفات الجامعة المصرية القديمة ، نسمع للأساتذة المحدثين من المصريين والأجانب ، ثم لا نكاد نخرج من غرفات الدرس ، حتى يتصل بيننا الحديث كما كان يتصل بيننا فى الأزهر ، وإذا دروس الجامعة تفتح لحوارنا آفاقا طريفة ، كنا نستلذ بها ونستحبها ، فنمضى فى الحوار وننسى له كل شىء وكل إنسان . نقطع الآماد البعيدة ماشين وقد أُنسينا جهد المشى ، وصرفنا عما حولنا من حركة الحياة واضطراب الأحياء ، وقد ننتهى إلى مكان نأوى إليه ثم ننسى أنفسنا فيه ؛ قد صُرفنا عن هذا المكان وعن أنفسنا ، وعمن يحيط بنا من الناس ، إلى ما نحن فيه من حوار ، وإلى ما نستمتع به من لذة الحديث .

ثم نفترق مرة أخرى ، فيذهب هو إلى مصر العليا مشتغلاً بالتعليم . وأذهب أنا إلى ما وراء البحر مشتغلاً بالتعلم ، وينقطع الحوار بيننا ، وتنقطع الرسائل أيضاً ، ويكاد يخيّل إلى كل واحد منا أنه قد نسى صاحبه ، وأن صاحبه قد نسيه . وتمضى على ذلك الأعوام الطوال ، ثم نلتقى ، ولا نكاد نأخذ فى الحديث حتى يتبين كل واحد منا أنه لم ينس صاحبه قط ، وكأنما التقينا أمس واستأنفنا لقاءنا اليوم ، فنحن نصل حديثاً لم نقطعه إلا أمس ، وإن كنا قد قطعناه منذ أعوام طوال .

ثم يريد الله أن يجمعنا بعد الافتراق مرة أخرى ، فإذا نحن فى الجامعة المصرية الجديدة نعمل معاً فى التعليم ، بعد أن كنا نشتغل معاً فى التعلم . وإذا أحاديثنا تتصل فى الجامعة الجديدة ، كما كانت تتصل فى الجامعة القديمة ، وكما كانت تتصل فى الأزهر الشريف ، وإذا الأمر يتجاوز بيننا اتصال الأحاديث ، فيجد كل منا لذة فى أن يختلف إلى بعض ما يلقى صاحبه من دروس ، ويشارك فيما يثير بين الطلاب من مناقشة أو حوار .

ثم تفرق الأيام بيننا — أستغفر الله — تحاول الأيام أن تفرق بيننا فلا تستطيع . أخرج أنا من الجامعة وألزم دارى حيناً ، وأشتغل بالسياسة العنيفة حينًا آخر ، ولكنى ألقى صاحبي أكثر مما كنت ألقاه قبل المحنة ، ويتصل الحديث بيننا أكثر مما كان يتصل قبل الأزمة . ثم أُعاد إلى الجامعة ، وإذا نحن نعود إلى الاشتراك فى الدرس ، ونمضى فيما كنا فيه من الجدل والحوار .

وكان النحو أشد موضوعات الحديث خطراً ، وأكثرها جريانًا فيما كان يكون بيننا من حوار . ضقنا بأصوله القديمة منذ عهد الأزهر ، وأخذنا ننكر هذه الأصول أيام الجامعة القديمة ، وأخذنا نلتمس له أُصولاً جديدة منذ التقينا فى الجامعة الجديدة .

فأنت ترى أنى حين أقدم إليك هذا الكتاب الجديد ؛ إنما أقدم إليك صديقًا قديمًا عرفته منذ عهد بعيد جداً ، ورأيته يشب وينمو ويتطور حتى تم خلقه واستوى كما تراه فى هذه الصفحات .

ولعلك بعد هذا تصدقنى إن قلت لك إنى الآن حائر لا أدرى أى الطريقين آخذ؟ وأى الطريقين أدع؟ طريق الحديث عن الكتاب، أم طريق الحديث عن صاحب الكتاب؟ فكلاهما يملأ نفسى حبًا وحنانًا وإعجابًا.

فأما الكتاب، فلأنه لا يصور الحياة العقلية لصاحبه وحده منذ أكثر من ربع قرن، ولكنه يصور طرفًا من أطراف الحياة العقلية لى أنا أيضًا، وإن صاحبي ليقرأ على الباب من أبواب الكتاب فلا أسمع صوت صاحبي، وإنما أسمع صوت إبراهيم، ولا أتجه إلى ما أسمع كما تعودت أن أتجه لما يقرأ على من الكتب والأسفار، وإنما أتجه له فى شىء من الاستعداد للمناقشة والتهيؤ للجدل والتأهب للنقد الشديد، كأنى أناقش إبراهيم فى مسألة من مسائل النحو، وما أعرف أنى لقيته فأطلت لقاءه ثم افترقنا دون أن نلم بطرف من أطراف النحو ونخوض فى مسألة من مسائله، ونستحضر قول هذا النحوى أو ذاك، ونحاول تخريج هذا البيت أو ذاك.

والكتاب بعد هذا أو قبل هذا يصور صاحبه أدق تصوير وأصدقه وأبرعه ، فهو برئ كل البراءة من هذا الغلو الذى يمتاز به المجددون فى لون من ألوان العلم ، فإذا هم يفتنون بآرائهم الجديدة ، ويفنون فيها ، وينسون كل قصد واعتدال ، ويتكلفون فى سبيل ذلك ما يقبل وما لا يقبل من الرأى ، ويحتملون فى سبيل ذلك ما يطاق وما لا يطاق من التبعات .

والكتاب برئ من هذا كله ، يزينه قصد صاحبه وإيثاره للاعتدال . تقرأه فلا تحس أنك تُنتزَع من النحو القديم انتزاعا ، وإنما تحس أنك تمعن فيه إمعانا ، وكأنك تقرأ كتب الأئمة المتقدمين من أعلام البصرة ، أو الكوفة أو بغداد .

علم غزير صحيح بأصول اللغة وفروعها ، ومذاهب النحويين والأدباء فى فهم هذه الأصول والفروع وتخريجها ، وتحدث عن ذلك بلغة الرجل الذى ألفه وتعوده ، فليس متكلفاً له ولا محدثا فيه ، وتواضع لا يفرضه صاحبه على نفسه

ولا يحتال فى الازديان به ، وإنما هو صورة للطبع ومكون من مكونات المزاج .

تواضع تحسه ، فيفيض فى نفسك حب صاحبه ، والميل إليه ، والإعجاب به ، والثقة بما يلقى إليك من الحديث . وأمانة فى الرأى والنقل جميعاً ، لا تكاد تمضى فى الكتاب حتى تحسها قوية جلية ، كأقوى ما تكون الأمانة وأجلاها وإذا أنت ترى المؤلف يحاسب نفسه أشد الحساب كلما خطر له رأى . وكلما جرى قلمه بكلمة ، أبغض الناس للتزيد ، وأشد الناس انصرافاً عن هذا التهاون مع النفس ، الذى يبيح لكثير من الناس مالا يباح للعالم الخليق بهذا الوصف .

ثم فقه بعد هـــذا كله بدقائق النحو ودخائله ، يجعله يضطرب فى هذا العلم العويص الملتوى ، كما يضطرب الرجل فى بيت ألفه منــذ نشأته ، وعرف زواياه وخفاياه ، فهو لا يخطو إلا عن علم ، ولا يتقدم إلا عن بصيرة .

وهذا الفقه لدقائق النحو ودخائله ، هو الذى ملأ قلب إبراهيم حباً للنحو ، وكلفا به ، وحنيناً إليه ، وعطفاً عليه ،

فهو يدرس النحو رفيقاً به متلطفاً فى الدرس ، كأنه يخاف أن يؤذيه أو يشق عليه ، وكأنه يكره أن يناله بما لا يحب .

يقف عند مسألة من مسائل النحو ، فيطيل النظر فيها مشغوفاً بها ، ثم إذا أرضى فيها حاجته عاد إليها فأطال الوقوف عندها والنظر فيها ، متهماً فهمه الأول ، ملتمسا أشياء يشفق أن تكون قد غابت عنه ، أو خفيت عليه . ثم هو يقلب المسألة على وجوهها المختلفة ، وأشكالها المتباينة ، ثم هو لا يرضى بكتاب أو كتابين أو كتب ، ولا يقنع فيها برأى إمام أو إمامين أو أئمة ، ولكنه يستقصى ويمعن فى الاستقصاء . وإذا المسألة التى يدرسها من مسائل النحو قد أصبحت عنده كائنا حيا له تاريخه ، فهو يتتبع هذا التاريخ من أصوله . يرجع إلى أصل هذه المسألة كيف نشأت ، وكيف تصورها النحويون الأولون ، وكيف تحدرت منهم إلى كتب الأجيال المختلفة من النحاة ، وبأى طور مرت عند ذلك الجيل ، وإلى أى طور انتقلت عند هذا الجيل ، حتى إذا أرضى نفسه من هذا الاستقصاء ، وما أصعب رضا نفسه ،

عاد إلى المسألة يدرسها من جديد كأنه لم يدرسها من قبل ، ولكنه فى هذه المرة لا يلتمسها فى كتب النحويين ، وإنما فى كلام العرب على اختلاف أجيالهم . يوازن بين ألوان هذا الكلام ويستخلص منه ما يرى أنه الحق ، وإذا هو يتفق مع النحويين حينًا ويخالفهم أحيانًا ، وليس هذا الكتاب إلا تصويراً لبعض النتائج التى وصل إليها من هذا الدرس المزدوج .

وإنى لمعجب أشد الإعجاب بهذا الصبر الطويل ، وهذا الجلد الذى لا أعرف له نظيراً فى هذا الجيل الذى نعيش فيه ، فليس يسيراً أن تعاشر النحويين فتطيل عشرتهم ، فضلاً عن أن تنفق حياتك كلها فى مصاحبتهم ، والتحدث إليهم ، والتحدث عنهم .

والناس بعد يضيقون بالنحو ويتبرمون بحديثه ، فما بالك برجل قد أصبح يضيق بكل شىء لا يتصل بالنحو ، ويتبرم بكل حديث لا يمس النحو من قريب أو بعيد ، حتى سميناه فيما بيننا بالفراء .

أنا معجب بهذا الصبر ، ولكن إعجابى بنتائجه عظيم أيضاً ، وما رأيك فى رجل يستطيع أن يؤرخ نشأة النثر العربى يستخلص تاريخه لهـذا الفن الأدبى العظيم من درس النحو وإطالة النظر فيه ، ويصل إلى نتائج باهرة حقاً ؟ وما رأيك فى رجل يطيل النظر فى النحو ، فإذا هو يرُد تفكير النحويين إلى تفكير الفلاسفة والمتكلمين من المسلمين ، وإذا هو يرد قصور النحو وتقصيره إلى علته الطبيعية ، وهى أن النحويين قد فلسفوا النحو ، فقصروا به عن أن يذوق جمال العربية ، ويصور ذوقها كما كان ينبغى أن يصور .

وهو لا يتحدث إليك بهذا كله حديث المدعى بغير دليل ، أو المتكثر من غير طائل ، ولكنه أمين دقيق ، لا يقول إلا عن علم ، ولا يرى إلا عن بصيرة ؛ دليله معه دائماً ، ودليله ملزم دائماً ، لأنه لا يحاول أن يقنعك إلا بعد أن يفرغ من إقناع نفسه ، وليس إقناعه نفسه بالشىء اليسير .

أليس هذا كله خليقاً أن يحبب إلى الحديث عن هـذا الكتاب وتقديمه إليك ؟

أليس هذا كله خليقاً أن يصرفنى إلى الكتاب عن صاحبه ؟ ولكن صاحب الكتاب كما قلت ملائم أشد الملاءمة لكتابه ؛ لا ترى فى الكتاب خصلة إلا وهى مستمدة من نفس صاحبه ، ملائمة لطبعه ، مشتقة من مزاجه ، فهو أبعد الناس عن التكلف ، وأبغضهم للتصنع ، وأشدهم ترفعا عن الرياء .

ما فى الكتاب من صدق اللهجة ، صورة ما فى صاحبه من صدق الخلق . وما فى الكتاب من الدقة والأمانة ، صورة ما فى صاحبه من الدقة والوفاء . وما فى الكتاب من القصد والاعتدال ، صورة ما فى نفس صاحبه من التواضع الذى يكرم به الرجل ، ويملأ قلوب الذين يعرفونه حبا وإكباراً ووفاء .

أقبل على إبراهيم ذات يوم ، فقرأ على فصولا من كتابه هذا . فأبيت عليه إلا أن يمضى فى القراءة من الغد ، وما زلنا كذلك ، يقرأ وأسمع وأناقش ، حتى فرغنا من قراءة الكتاب ولم يكن يعرف له اسما ، فاقترحت عليه هذا الاسم الذى رسمه به « إحياء النحو » فأكبره واستكثره وأشفق منه ،

وألححت أنا فيه ، فلم يستطع لى خلافا .

وأنا أتصور إحياء النحو على وجهين : أحدهما أن يقربه النحويون من العقل الحديث ليفهمه ويسيغه ويتمثله ، ويجرى عليه تفكيره إذا فكر ، ولسانه إذا تكلم ، وقلمه إذا كتب . والآخر أن تشيع فيه هذه القوة التى تحبب إلى النفوس درسه ومناقشة مسائله ، والجدال فى أصوله وفروعه ، وتضطر الناس إلى أن يعنوا به بعد أن أهملوه ، ويخوضوا فيه بعد أن أعرضوا عنه .

وأشهد لقد وفق إبراهيم إلى إحياء النحو على هذين الوجهين . فانظر فى هذا الكتاب فسترى أن إبراهيم لا يعرض عليك علماً ميتاً ، وإنما يعرض عليك علماً حيا يبعث الحياة فى الذوق .

ثم سترى أن إبراهيم لا يعرض عليك مسائل جامدة هامدة ، ولكنه يفتح للنحويين طريقاً إن سلكوها فلن يحيوا النحو وحده ، ولكنهم سيحيون معه الأدب العربى أيضاً .

ثم انتظر بهذا الكتاب وقتا قصيراً ، فسترى أنى لم

أغلُ ولم اسرف ، حين زعمت فى أول هـذا الحديث أنه سيحفظ قوما ، وسيدفعهم إلى الخصومة والجدال دفعا .

فالكتاب كما ترى ، يحيي النحو لأنه يصلحه ، ويحيي النحو لأنه ينبه إليه من اطمأنوا إلى الغفلة عنه ، وحسبك بهذا إحياء .

أرأيت أنى كنت خليقا أن أقف موقف الحائر ! لا أدرى أأتحدث عن الكتاب أم عن صاحبه ، وإنى خليق الآن بعد أن بينت لك مصدر هذه الحيرة أن أكتفى من تقديم هذا الكتاب إليك ، بأن أسجل بهذه الكلمة القصيرة القاصرة ما يملأ قلبى من حب لإبراهيم ، وما يملأ عقلى من إعجاب بكتاب إبراهيم ؟

طه حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بحث من النحو ، عكفت عليه سبع سنين وأقدمه إليك فى صفحات . سبع سنين من أوسط أيام العمر وأحراها بالعمل ، صدَقتُ فيها الاعتكاف إلى النحو ، وإلى ما يتصل بمباحثه ، وأضعت له من حق الصديق والأهل والولد والنفس جميعاً .

كان سبيل النحو موحشا شاقا ، وكان الإيغال فيه ينقض قواى نقضا ، ويزيدنى من الناس بعدا ، ومن التقلب فى هذه الدنيا حرمانا . ولكن أملاً كان يزجينى ويحدو بى فى هذه السبيل الموحشة ؛ أطمع أن أغير منهج البحث النحوى للغة العربية ، وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النحو ، وأبدلهم منه أصولا سهلة يسيرة ، تقربهم من العربية ، وتهديهم إلى حظ من الفقه بأساليبها .

كانت بارقات الأمل — خادعة وصادقة — تدفعنى فى

سبيلى ، غير راحمة ولا وانية . فليكن ما أنفق من هذا العمر ذخراً فى أعمار الدارسين من بعد ، ولتكن شيخوخة هذا الشيخ فدًى للعربية ؛ أن تُقَرِّب من طالبيها ، وَيُمَهِّدَ السبيل لمتعلميها .

اتصلت بدراسة النحو فى كل معاهده التى يدرس فيها بمصر ، وكان اتصالاً طويلاً وثيقاً ؛ ورأيت عارضة واحدة ، لا يكاد يختص بها معهد دون معهد ، ولا تمتاز بها دراسة عن دراسة ، هى التبرم بالنحو ، والضجر بقواعده ، وضيق الصدر بتحصيله ؛ على أن ذلك من داء النحو قديماً ، ولأجله أُلف « التسهيل » و « التوضيح » ، و « التقريب » ، واصطُنع النظم لحفظ ضوابطه ، وتقييد شوارده .

والنحو مع هذا لا يعطيك عند المشكلة ، القول البات ، والحكم الفاصل . قد يهدى فى سهل القول ، من رفع فاعل ونصب مفعول ، فإذا عرض أسلوب جديد ، أو موضع دقيق ، لم يسعفك النحو بالقول الفصل ، واختلاف الأقوال ، واضطراب الآراء ، وكثرة الجدل التى لا تنتهى إلى فيصل

ولا حكم ، كل ذلك قد أفسد النحو أو كاد ، فلم يكن الميزان الصالح لتقدير الكلام ، وتمييز صحيح القول من فاسده .

وإذا جئنا إلى مدارس الناشئين ، كانت المشكلة فى تعليمهم النحو أشد وأكدّ ؛ فهو على ما تعلم من بُعد تناوله ، وصعوبة مباحثه ، قد جُعل المفتاح إلى تعلم العربية ، وكُتب على الناشىء أن يأخذ بنصيبه منه ، منذ الخطوة الأولى فى التعليم الابتدائى والثانوى . واختير له جملة من القواعد ، قدر أنها تفى بما يحتاج إليه لأصلاح الكلام وتقويم اللسان ، ثم كانت خصومة هادئة قاسية بين طبيعة التلميذ ، وبين هذا المنهاج والقائمين عليه . أما التلميذ فقد بذل الجهد وأعيا ، ولم يبلغ من تعلم العربية أربا . وأما أصحاب المنهج ، فقد رأوا أن يزيدوا فى منهجهم ، ويكملوا للتلميذ حظه من القواعد ، فلا سبيل له إلى العربية غير هذا النحو ؛ فزادوا فى هوامش كتبهم ما يكمل القواعد ويتم الشروط — ثم تسللت هذه الزيادات إلى جوف الكتاب فضخم ، وزاد المنهاج المفروض — ولكن طبيعة التلميذ الصادقة فى إباء هذه القواعد ، والتململ بحفظها ، لم تخف

شهادتها ، ولم يستطع جحدها ، فكانت ثورة على المنهاج وأصحابه ، وخففت منه ، وانتقص من مسائله ، والداء لم يبرأ ، والعوارض لم تتغير ، وتكررت الشكوى ، وعادوا على المنهاج بالنقص ، حتى كان المقرر قواعد من النحو مختلفة ، كأنما هى نماذج يراد بها عرض نوع من مسائله .

قد كان فى هذا ، الشهادة الصريحة بفشل هـذا النحو أن يكون السبيل إلى تعلم العربية ، والمفتاح لبابها .

ولقد بذل فى تهوين النحو جهود مجيـدة ، واصطنعت أصول التعليم اصطناعا بارعا ، ليكون قريباً واضحاً ؛ على أنه لم يتجه أحد إلى القواعد نفسها ، وإلى طريقة وضعها ، فيسأل : ألاَ يمكن أن تكون تلك الصعوبة من ناحية وضع النحو وتدوين قواعده ، وأن يكون الدواء فى تبديل منهج البحث النحوى للغة العربية ؟

هـــذا السؤال هو الذى بدا لى ، وهو الذى شغلنى جوابه طويلا .

ولقد تميز عندى نوعان من القواعد : نوع لا تجـد فى

تعليمه عسراً ، ولا فى التزامه عناء ، ولا ترى خلاف النحاة فيه كبيرا ، وذلك كالعدد ورعاية أحكامه فى مثل : قال رجلان ، والرجلان قالا . وقال رجال ، والرجال قالوا . فمع دقة الحكم فى رعاية العدد ، واختلافه تبعاً لموضع الاسم والفعل من الجملة ، لا تجد العناء فى تصوره ، ولا المزلة فى استعماله .

ونوع آخر لا يسهل درسه ، ولا يؤمن الزلل فيه ، وقد يكثر عنده خلاف النحاة ، ويشتد جدلهم ، كرفع الاسم أو نصبه فى مواضع من الكلام .

ثم رأيت علامات العدد تصوّر جزءًا من المعنى يحسه المتكلم حين يتكلم ، ويدركه السامع حين يسمع . أما علامات الإعراب ، فقلّ أن ترى لاختلافها أثراً فى تصوير المعنى ، وقلّ أن يشعرنا النحاة بفرق بين أن تنصب أو ترفع ؛ ولو أنه تبع هذا التبديل فى الإعراب تبديل فى المعنى ، لكان ذلك هو الحكم بين النحاة فيما اختلفوا فيه ، ولكان هو الهادى للمتكلم أن يتبع فى كلامه وجهاً من الإعراب .

فلو أن حركات الإعراب كانت دوالّ على شىء فى

الـكلام ، وكان لها أثر فى تصوير المعنى ، يحسه المتكلم ويدرك ما فيــه من الإشارة ومن وجه الدلالة ، لما كان الإعراب موضع هذا الخلاف بين النحاة ، ولا كان تعلمه بهذه المكانة من الصعوبة ، وزواله بتلك المنزلة من السرعة .

ألهذه العلامات الإعرابية معان تشير إليها فى القول ؟ أتُصور شيئاً مما فى نفس المتكلم ، وتؤدى به إلى ذهن السامع ؟ وما هى هذه المعانى ؟؟ .

والعربية — لغة القصــد والإيجاز — أتلتزم علامات الإعراب على غير فائدة فى المعنى ، ولا أثر فى تصويره ؟

لقد أطلت تتبع الـكلام ، أبحث عن معانى لهذه العلامات الإعرابية ، ولقد هدانى الله — وله خالص الإخبات والشكر — إلى شىء أراه قريباً واضحاً ، وأبادر إليك الآن بتلخيصه :

(١) إن الرفع علم الإسناد ، ودليـل أن الـكلمة يتحدث عنها .

(٢) إن الجر علم الإضافة ، سـواء أكانت بحرف أم بغير حرف .

(٣) إن الفتحة ليست بعلم على إعراب ، ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة ، التي يحب العرب أن يختموا بها كلماتهم ما لم يلفتهم عنها لافت ؛ فهى بمنزلة السكون فى لغتنا الدارجة .

(٤) إن علامات الإعراب فى الاسم لا تخرج عن هذا إلا فى بناء ، أو نوع من الاتباع ، وقد بيناه أيضاً .

فهذا جماع أحكام الإعراب ؛ ولقد تتبعت أبواب النحو باباً باباً ، واعتبرتها بهذا الأصل القريب اليسير ، فصح أمره ، واضطرد فيها حكمه .

ثم زدت فى تتبع هذا الأصل ، فتجاوزت حركات الإعراب ، ودرست التنوين على أنه منبئ عن معنى فى الكلام ، فصح لى الحكم واستقام ، وبدّلت قواعد « ما لا ينصرف » ، ووضعت للباب أصولاً أيسر وأنفذ فى العربية مما رسم النحاة للباب . ولا أؤجل عنك إجمال هذه الأصول أيضاً :

(١) إن التنوين علَم التنكير .

(٢) لك فى كل عَلَم ألا تنوِّنه ، وإنما تُلحقه التنوين

إذا كان فيه حظ من التنكير .

(٣) لا تُحرم الصفة التنوين حتى يكون لها حظ من التعريف .

والبحث الذى أقدمه إليك الآن ، هو شرح موجز لهذه الفكرة ، ودرس لها فى أبواب النحو المختلفة ، وبيان لما رأينا من الأدلة لتأييدها .

وكنت أريد أن أشكر لصديق الدكتور طه حسين ، وأذكر فضله فى إتمام البحث وإخراج الكتاب ؛ ولكنه آثر أن يقدم الكتاب ، وانزلق إلى الثناء على صاحبه ، فأُجْرِرت أن أتكلم .

وحق علىّ أن أشكر تلاميذى الذين عاونونى فى شىء من المباحث ، وإن لم أملك الآن أن أسميهم وأعمالهم .

وأحمد الله حمداً ملؤه التوحيد والتمجيد والشكر .
